ملح العلماء والشعراء

ما أجمل أن تتنقل بين أبابيل الشعر ودواوينه وكتبه وتتعرف على ملحه وجماله وتقطف لك من كل بستان زهرة ومن كل حديقة وردة. وما أكثرها، وإن كتب الشعر وموسوعاته لتعج بها فتحتار من أيها تقطف ومن أيها تتذوق قديمها وحديثها. ولقد أخترنا لك من جواهرها وفرائدها ما نطمع أن يلامس ذوقك ويروح عن قلبك، فنرجو أن نكون قد وفقنا لاختيار الشجرة وقطف الثمرة، فاخترنا من مليح العلماء والشعراء مقتطفات ومساجلات يأنس لها الوجدان ويسكن لها الجَنَان.

قرات لك في كتاب الكشكول الهجري:

في باب طرائف وظرائف، قيل إن رجلاً كانت عنده ابنة جميلة تزوجها رجل من أهل النعم وأحبته، فلم تلبث معه إلا قليلاً حتى مات فحزنت عليه حزناً شديداً وكانت تدخل بستاناً لأبيها تخلو فيه وتبكي وتنشد هذه الأبيات:

إنما ابـكي لإلف خانه الـدهر فمات ... قلت للدهر بشجـو أيها الدهر أسأت
لم تركت الأم والأب وبالإلف بدأت ... إنه أحسن خلق كان لي في الخلوات

ففطن لها أبوها وسمعها تردد البيات فقال لها ما كنت تقولين يا بنية؟ فقالت يا أبتي وجدت الماء قد قلّ ولحق النخل العطش، فلما رأيت ذلك أحزنني فأنشدت:

إنـما ابكي لـنخـل خانــه الـماء فـمـات ... قلت للـماء بشجـو أيها الماء أسات
لم تركت الزرع والكرم وبالنخل بدأت ... إنه أحسن شيء كان لي في الثمرات

....

وقرأت لك أيضا فيه: العباس بن الأحنف والجارية العاشقة

قال العباس بن الأحنف بينا أنا في الطواف إذا بجوار أتراب، فلما أبصرنني قلن: هذا العباس؛ ودنت إلي إحداهن، فقالت: يا عباس! أنت القائل:

ماذا لـقيـت من الهـوى وعـذابه ... طلـعت علي بـلـية من بـابه

قلت: نعم! قالت: كذبت، لو كنت كذاك كنت كأنا، ثم كشفت عن أشاجع مُعـراة من اللحم، وأنشأت تقول:

ولما شكـوت الحـب قالت: كذبتني، ... فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا
فلا حب حتى يلصق الجلد بالحشا، ... وتخرس، حـتى لا تـجـيـب المناديا

....

وقرأت لك من كتاب طبقات الشافعية الكبرى: قال حدثنا الحسن بن سعيد بن جعفر حدثنا أبو زرارة الحراني قال سمعت الربيع بن سليمان يقول كنت عند الشافعي إذ جاءه رجل برقعة فقرأها ووقع فيها فمضى الرجل وتبعته إلى باب المسجد فقلت والله لا تفوتني فتيا الشافعي فأخذت الرقعة من يده فوجدت فيها

سل المفـتي المكي هل في تـزاور ... وضمة مشتـاق الـفـؤاد جـنـاح

فإذا قد وقع الشافعي:

فـقـلت مـعـاذ الله أن يذهـب الـتقى ... تـلاصق أكـباد بـهـن جراح

قال الربيع فأنكرت على الشافعي أن يفتي لحدث بمثل هذا فقلت يا أبا عبد الله تفتي بمثل هذا لمثل هذا الشاب فقال لي يا أبا محمد هذا رجل هاشمي قد عرس في هذا الشهر يعني شهر رمضان وهو حدث السن فسأل هل عليه جناح أن يقبل أو يضم من غير وطء فأفتيته بهذا، قال الربيع فتبعت الشاب فسألته عن حاله فذكر لي أنه مثل ما قال الشافعي. قال فما رأيت فراسة أحسن منها.

.....

وقرأت لك من كتاب حكاية الينابيع للشاعر ناجي بن داود الحرز:

ومن مشاغباتنا مع الأستاذ زكي السالم التي لا تنتهي.. هذه الأبيات التي أرسلتها إليها عبر الهاتف وأنا في الطريق لزيارته في قريته " بني معن:

يا مـرحـباً ألـفـاً وألـفـاً ... إنْ جئت أو إنْ رحت خلْفاَ
فـلـقـد فـتـقـتَ مرارتي ... وشطـفـتـنـي بـهـواك شطْفا
الآن جـئـتُ إلى" بـنـي ... معنٍ " من الـهـفـوف زحْفا

فعاجلني بهذه الأبيات وكأنه يرد الزيارة في عالمٍ افتراضي:
طـير الـمـودة منـك رفًّا ... وإلى فـؤادي الصـبِّ هـفًّا
فـوجدتـنـي أعـدو إلـيكم ... شـفّــنـي الـتــبـريـح شــفًّا
حتى بلغتُ دياركم ... فافتح لي " البستان " " تكفى "!!
....

وقرأت لك من كتاب جاسم الصحيح خرج إلى الشعر ولم يعد للدكتور حسين سرمك: اللحم المقدس مرة أخرى" لحم اللغة:

ولكن مقابل تفاحة اللحم الباذخ هذه التي تسببت في طردنا من الفردوس المنعم المطعم الحاني، تلعب أصابع جاسم الماهرة على أوتار جسد مقابل.. تفاحة لغة.. لحم من الكلمات.. هنا يقوم الشاعر بـ " تعشيق اللغة" حيث يشحن الكلمات والحروف وحتى علامات الترقيم بطاقة حسية ولأحيانا جنسية هائلة.. ومنا أستعيد أطروحة مركزية لـ " معلم فينا" وهي أن جزءً كبيرا من أصل اللغة " جنسي " وأعتقد أنها نشأت كإنجاز أمومي أولا والأم راكعة عند رأس مهد رضيعها الصغير، ثم لإخفاء الرغبة الجنسية حين يعود الأب العاشق ليلا:

ما بال " تائِـ " ــكِ لم تزل " مربوطة "
من جيــدها بعباءة وحجابِ
فكِّي سلاسلها التي انعقدت على
كونٍ بنوبات الفنون مصاب
وقفي أمامي كي أنزّه قامتي
في الأفق بين منارة وقباب
ثم " أعربي " جسدي بأجمل " ضمّةٍ "
للشوق تكشف حكمة "الإعرابِ "
....

وقرأت لك من العقد الفريد لأحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي، الجزء السادس " كتاب الزمردة ":

حدث دعبل الشاعر أنه اجتمع هو ومسلم وأبو الشيص وأبو نواس في مجلس، فقال لهم أبو نواس: إن مجلسنا هذا قد شهر باجتماعنا فيه، ولهذا اليوم ما بعده فليأت كلّ واحد منكم بأحسن ما قال فلينشده. فأنشده أبو الشيص فقال:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي ... متـأخّـر عـنـه ولا مـتـقـدّم
أجـد الـملامة في هـواك لـذيـذة ... حـبّا لـذكرك فـلـيلمني اللّوم
وأهـنـتـني فأهـنـت نـفسي صاغرا ... ما من يهـون عـليك ممن أكرم
أشـبـهت أعـدائي فـصرت أحـبّـهم ... إذ كان حظّي منك حظّي منهم

قال: فجعل أبو نواس يعجب من حسن الشعر حتى ما كاد ينقضي عجبه، ثم أنشده مسلم أبياتا من شعره الذي يقول فيه:

فأقسم أنسى الدّاعيات إلى الصّبا ... يـمـينا وقد فاجأت والسّـتر واقع
فـغـطّت بأيـديها ثـمار نحـورها ... كأيدي الأسارى أثقلتها الجوامع

قال دعبل: فقال لي أبو نواس: هات أبا علي، وكأني بك قد جئتنا بأم القلادة فقلت: يا سيدي، ومن يباهيك بها غيري فأنشدته:

أين الشّـبـاب وأيّـة سـلـكا ... أم أين يـطـلب ضـلّ أم هـلـكا
لا تـعـجـبي يا سلم من رجل ... ضحـك الـمشـيب برأسه فبكى
يا ليت شعري كيف صبركما ... يـا صاحـبيّ إذا دمـي سـفـكا
لا تـطـلـبا بـظـلامتي أحـدا ... قلبي وطرفي في دمي اشتركا

ثم سألناه أن ينشد، فأنشد أبو نواس:

لا تـبك هندا ولا تـطرب إلى دعـد ... واشرب على الورد من حمراء كالورد
كأسا إذا انحدرت في حلق شاربها ... وجـدت حـمـرتـها في العـين والخـدّ
فالخـمـر ياقـوتة والكـأس لـؤلـؤة ... في كـفّ جـارية مـمشـوقـة الـقـدّ
تسقيك من عينها خمرا ومن يدها ... خـمـرا، فـمـالك من سـكريـن من بـدّ
لي نـشـوتـان ولـلـنّـدمان واحـدة ... شيء خـصـصت بـه من بـيـنـهم وحدي

فقاموا كلهم فسجدوا له؛ فقال: أفعلتموها أعجميّة؟ لا كلمتكم ثلاثا ولا ثلاثا ولا ثلاثا! ثم قال: تسعة أيام في هجر الاخوان كثير، وفي هجر بعض يوم استصلاح للفساد وعقوبة على الهفوة. ثم التفت فقال: أعلمتم أن حكيما عتب على حكيم، فكتب المعتوب عليه إلى العاتب: يا أخي، إن أيام العمر أقلّ من أن تحتمل الهجر.

.....

وقرأت لك في ديوان الأمير شكيب ارسلان:

بينما أنا ذاهب من سورية إلى الأستانة مبعوثًا عن حوران في أيام الحرب العامة، نزلت ضيفًا في طرسوس على سعادة الشهم الأمثل محمد بك راسم من كبار أعيان مصر المقيم هناك، وكانت حصلت حادثة على فتاة حسناء تشتغل في معمله القطني، وضُويقت الفتاة لأجل جمالها، والبك المشار إليه لا يعلم بالواقع، فلما بلغه الخبر امتعض ومنع من التعرض لها وجعلها في مأمن من سطوة العاشق، وصادف وجودي هناك، فقلت على سبيل المداعبة:

أقسمتُ إذ طلعت عليَّ شموسها ... وزهت بها الأرجاء وهي عروسها
أعلى محلٍّ في الجمال محلها ... وبها فأجمل بلدة طرسوسها
لم أحسدِ العشاق إلا واحدًا ... أحظاه رب العرش فهو جليسها
في مجلسٍ يدع الحليم مرنحًا ... سيَّان فيه لحاظها وكُئُوسها
ما إن رأتها مهجةٌ إلا فدت ... ذاك المحيَّا نفسها ونفيسها
ومن العجائب وهي ريمة رامة ... تعنو لها غُلْب الرجال وشوسها

إلى أن يقول:

مضي لها في الغَزْل بِيضُ أناملٍ ... ظَلَم الذي هو بالحرير يقيسها
القطن يهزأ بالدِّمَقْس بكفها ... والخز ودَّ لو انَّه ملموسها
في الغزل أصبح شغلها ولنا به ... متحركًا قطعٌ تضيق طروسها
أحببتُ عيسى والصليبَ لأجلها ... حتى يكاد يؤمُّ بي قسيسها
وأخالف الشيخ التميميَّ الذي ... ما كان يُطرِب سمعَهُ ناقوسُها
لو كان شاهَد وجهها وعفافها ... مع حسنها ما آدَهُ تقديسها

أقول والقصيدة جميلة وتطلب من ديوانه اقتطفنا منها لمحل الشاهد.

وكانت صورة هذه القصيدة وصلت إلى الشام، فبعث إليَّ الأديب الكبير خليل بك مردم بك من سراة دمشق بالأبيات التالية على سبيل المداعبة:

ما للصبابةِ منك هاج رسيسها ... ولنار قلبك عاد فيه حسيسها
عهدي بقلبك والأوانس والدُّمى ... لا تستبيه سُعادُها ولميسها
شمست عن التهيام نفسُك يافعًا ... هل رِيض بعد الأربعين شموسها
لله فاتنة تملَّكُ قلبَ مَن ... تُحنَى لديه من الرجال رءوسها
فعلت به ألحاظُها ما قصَّرت ... عن فعله أقداحُها وكئُوسها

ابراهيم سلمان بوخمسين